

القصور الأموية في بلاد الشام

القصور الأموية في الأردن:

لم يقتصر بناء القصور الأموية على منطقة البادية بتدمير بسورية، بل انتشر بناء هذه القصور في أنحاء متفرقة من صحراء الأردن وفي لبنان وفلسطين. من أهم القصور الأموية في الأردن: قصر المشتى وقصر الحرانة وقصر الطوبة وقصر عمرة.

قصر المشتى:

يقع قصر المشتى جنوب شرقي مدينة عمان، وعلى مسافة /32/ كم. يتألف المسقط الأفقي للقصر من ثلاثة أقسام رئيسية محاطة بسور مربع الشكل، يبلغ طول ضلعه /144/ م ومدعم بخمسة وعشرين برجا نصف دائري. والأسلوب الإنشائي المتبع في بناء السور أعطاه القوة والمناعة، من خلال استخدام جدارين مزدوجين بينهما فراغ مملوء بالحجارة الصغيرة المزوجة بمادة الملاط، وقد بلغت سماكة جدار السور /1.7/ م.

تتغير أقطار الأبراج حسب موقع بناء كل برج على السور، فالأبراج التي تحتل الزوايا يبلغ قطر كل منها /7/ م، بينما يبلغ قطر الأبراج الجانبية /5.25/ م، ويفصل بين كل برجين مسافة /19/ م، وقد استفاد المعمار من الأبراج الجانبية الملاصقة للغرف الداخلية لاستعمالها كدورات للمياه، بعمل تجويف داخل البرج يمتد للمداخل، وينتهي التجويف بحنية نصف دائرية تتخللها فتحة منحدرية تؤدي إلى قسطل يمتد بدوره إلى الخارج.

للقصر مدخل رئيسي واحد، يحيط به من كل جانب برج نصف اسطوانية مئمنة المقطع، يؤدي المدخل إلى ممر على جانبيه صف من القواعد المربعة، التي كانت تقف عليها أعمدة تحمل بدورها عقوداً عرضية. ويحيط بالممر من الجانبين قاعتان متطاولتان، يحاذي الشرقية منها بناء مستطيل يعتقد أنه المسجد لوجود محراب أو حنية في جداره. ويؤدي المدخل بعد انتهاء المرور إلى ثلاثة أقسام رئيسية، يشكلها جدران جانبين يمتدان من الشمال إلى الجنوب. يتألف القسم الأوسط من ثلاثة أقسام وهو الذي يحتوي على الوحدات المعمارية المكونة للقصر، بينما الجزئيين الشرقي والغربي فلا يحتويان على عناصر معمارية، ما عدا بعد البروزات في الوجوه الداخلية للجدران الخارجية، مما يوحي بأنها كانت معدة لبناء عدد من الغرف والقاعات، يبلغ طول كالم من الجزئيين الشرقي والغربي /42/ م، بينما يبلغ عرض القسم الأوسط /57/ م.

يمكننا القول من خلال نوعية مواد البناء المستخدمة في بناء القسم الشمالي، ومن خلال العناصر المعمارية المكونة لهذه الأبنية، بأنها كانت تشكل الجناح الملكي في القصر. فالجدران مشيدة بالطوب فوق قواعد من الحجر الكلسي، والمباني مقسمة إلى ثلاثة أقسام بواسطة جدارين بسماكة /1.35/ م لكل منهما، ويتم الدخول إلى القسم الأوسط عبر مدخل ذي عقد ثلاثي، يرتكز على أكتاف مشيدة بحجارة منتظمة الشكل ويعلوها تيجان كورنثية. يؤدي المدخل إلى قاعة مقسمة إلى ثلاث بلاطات أو أجنحة مستطيلة متأثرة بالطراز البازيليكي، تنتهي بدورها بقاعة على الأغلب أنها قاعة العرش، إذ أنها مكونة من ثلاث حنيات نصف دائرية، ويحيط بالقاعة مساكن مكونة من زوجين من الغرف المسقوفة بأقبية (قبوات). نلاحظ استخدام العقود المدببة في الغرف والتي شاع استعمالها في العمارة الإسلامية على مختلف العصور، وكان أسلوب تصميم قاعة العرش متأثراً إلى حد بعيد بالحمامات الرومانية وخصوصاً في مجال استخدام الحنيات نصف الدائرية.

أما القسم الجنوبي فيضم باحة داخلية /21.7-27.4/ م يؤدي إليها ممر، تضم قواعد أعمدة مربعة الشكل متوزعة على محيط الباحة بشكل متناظر ومتماثل، ويبدو أن هذه القواعد كانت بمثابة نقاط ارتكاز لأعمدة وأكتاف من القرميد.

كما يضم القسم الجنوبي قاعتين متطاولتين بجوار المدخل، وتؤدي إليها فتحات كانت في جداري الممر على الأغلب. ودراسة أسلوب الإنشاء للقصر توضح لنا مدى مقدرة المعمار على خلق توافق وانسجام معماري بين استخدام الحجارة والطوب في إنشاء العناصر المعمارية المكونة لمباني القصر، كما أنه استطاع أن يلائم بين الشروط المناخية السائدة في الصحراء وبين طبيعة المواد المستخدمة في البناء، فنرى استخدام الطوب في بناء الجدران بسبب ما يوفره

من رطوبة في الداخل وتأمين العزل الحراري للمبنى. كما أنه عالج الأشكال والفراغ معالجة معمارية متوافقة مع الشروط البيئية للمنطقة، فقد جعل الفراغات بمثابة الرئة التي تتنفس منها لأقسام القصر.

وقد جعل المعمار واجهة القصر لوحة فنية تضم الزخارف النباتية والحيوانية النافرة، إلى جانب الزخارف الهندسية التي كانت بمثابة إطار يحدد موقع المساحات المزخرفة، ورغم تأثر هذه الزخارف بأسلوب الزخارف الرومانية والبيزنطية، فإنها تجسد الروح الفنية العربية الإسلامية التي تبتعد عن المحاكاة والتقليد والنقل عن الطبيعة نقلا مباشرا.

إن تماثل وتناظر مساكن القصر وتوزيع غرفها، يشبه أسلوب بناء مساكن قصري الحير الشرقي والغربي بالقرب تدمر، كما ظهر هذا التماثل والتوزيع في الطابق العلوي لقصر الحرانة وقصر الطوبة.

القصور الأموية في فلسطين:

من خلال التنقيبات الكثيرة التي قام بها العدو الصهيوني في مدينة القدس، ظهرت ثلاثة منشآت معمارية تقع تحت مدينة البنات التي هدمت في حي المغاربة. ومن خلال دراسة مساقطها وأسلوب إنشائها، لوحظ تشابهها مع مخطط القصور الأموية في الشام. ومن أهم القصور الأموية في فلسطين:

قصر خربة المفجر:

يقع على مقربة من أريحا ويعود تاريخ إنشائه إلى عهد هشام بن عبد الملك، وكان عبارة عن استراحة للخليفة تضم قصر وجامع وحمامات وفناء أمامي ذو أعمدة وبركة مزخرفة، وكانت هذه المنشآت محاطة بسور يمتد حوالي 2/ م باتجاه نهر الأردن.

يعتبر القصر المبنى الرئيسي بين مجموع المنشآت المكتشفة، ويشبه مخططه مخطط قصر الحير الغربي على شكل مربع تقريبا. وفي كل زاوية من زواياه الأربعة أبراج دائرية الشكل، كما يوجد في منتصف كل واجهة برج نصف دائري وما عدا الواجهة الغربية. ويحيط بالمدخل الرئيسي برجان وأمامه فسحة أمامية ذات أعمدة تمتد حتى الحدود الشمالية للحمامات، والفسحة غير مسقوفة، ويوجد في وسطها بركة ذات زخارف مميزة وذات شكل مربع، يعلوها قبة ذات ثمانية أضلاع تقوم فوق أربعة أقواس ضخمة.

بالإضافة إلى قصر خربة المفجر، تضم المنطقة قصر خربة المنية بالقرب من بحيرة الناصرة، وهو قصر أموي رممه ووسعه الخليفة الوليد بن عبد الملك.

القصور الأموية في لبنان:

مدينة عنجر وقصرها:

تقع مدينة عنجر القديمة في منتصف الطريق بين دمشق وبيروت، وكان بناء مدينة وقصر عنجر حلقة في سلسلة المنشآت التي شيدها عبد الملك بن مروان، الذي عرف عنه الحرص في نقل إقامته حسب اختلاف الفصول (شتاء وصيف).

يتألف موقع عنجر من أرض واسعة طول ضلعها /310-375/ م، يسورها جدار ضخم تبلغ سماكته /2/ م، ويدعم السور ثمانية أبراج في الجهة الشمالية ومثلها في الجهة الجنوبية، وعشرة أبراج في كل من الجهتين الشرقية والغربية، وذلك عدا الأبراج الأربعة الدائرية الواقعة في زوايا السور الأربعة، ويفتح في منتصف كل جدار باب كبير محاط ببرجين.

يتألف القصر من قسمين متماثلين يفتحان على فناء داخلي، محاط بأروقة ذات أقواس تتألف من طابقين من الأقواس نصف الدائرية، وخلف الأروقة مجموعة من الغرف المتداخلة، وللقصر مدخلان واحد من الشرق وآخر في الغرب ويتصل المدخلان بالفناء الداخلي عبر رواق محمول على أعمدة ويفتح عليه عدد من الغرف. والقصر مربع الشكل وغني بالزخارف، ويعتقد أنه بني فوق موقع روماني قديم. واتبع في بنائه بالمزج بين الحجارة والقرميد.

الميزات العامة للعمارة في العصر الأموي:

من خلال استعراضنا لأهم المنشآت التي بنيت في العصر الأموي، نتعرف على الأسلوب الإنشائي ومواد البناء، مع ملاحظة تركيز النشاط المعماري في بلاد الشام باعتبارها عاصمة الخلافة الأموية.

تأثرت العمارة الأموية بالعمارة السورية، عن طريق استخدام المهندسين والعمال السوريين الذين برعوا في ميدان العمارة، ولكن هذا التأثير لا يعني النسخ والنقل وإنما استفادوا من التجارب السابقة في إيجاد أسلوب معماري عربي إسلامي.

استخدمت الحجارة كمادة أساسية في العمارة الإسلامية في العصر الأموي، على شكل مداميك منتظمة الأشكال ويتراوح ارتفاع المدماك بين /30-90/ سم، ودخل القرميد حوالي

نهاية العصر الأموي جنبا إلى جنب مع الحجارة كمادة لبناء الجدران والأقبية. أما بالنسبة الأسقف فكان أغلبها من الأخشاب وعلى شكل جمالون.

واشتهرت العمارة الأموية باستخدام العقود المحمولة على أعمدة رخامية، اقتضت الضرورة أحيانا لأخذها من مواقع رومانية قديمة. أما بالنسبة للعقود المستخدمة فكان منها ابتكار عربي إسلامي، ومنها كان سائدا في العصور السابقة، وأغلب العقود المستخدمة: العقود نصف الدائرية- حدوة الفرس- المدبب والمستقيم. كما استخدموا الأوتار الخشبية في ربط الأعمدة ببعضها البعض. وقد نهلت العمارة الأموية من العمارة الرافدية، ولا سيما في بناء الأقبية والقباب مستعملين القطاع الطولي للمخروط في تحويل الشكل المربع إلى دائري.

توضح عمارة القصور بجلاء مدى حب الخلفاء الأمويين للحياة الصحراوية، بما فيها من رحابة وصفاء وهدوء، وأغلب القصور الأموية متأثرة لحد بعيد بتخطيط القصور في بلاد الرافدين فهي تشبه الحصون، وقد اتبع في تخطيطها الاعتماد على التقسيم الثلاثي، فالقصر مقسم إلى وحدات معمارية ذات استقلال وظيفي، لكنها مرتبطة ببعضها بعض.

ومن خلال دراسة المنشآت الأموية، يتضح أن العمارة في العصر الأموي متأثرة بالفنون المعمارية في وادي النيل وبلاد الشام والرافدين، وهذا مرده إلى استخدام الفنيين والمعماريين من هذه البلاد، وهذا لا يقلل من شأن العمارة الإسلامية، فالشعوب التي سكنت المنطقة شعوب حضارية اندمجت مع الثقافة الإسلامية.

د. عبير شدود